افاعي الفردوس

بين الشهوة الصاخبة والعفّة المتنائية

بقلم جان عزيز

الياس ابو شبكه شاعر لبناني مجدّد ، اسرى — فيمن اسرى من شعرائنا غبّ الحرب — الى ينابيع الحياة في الغرب . وذلك بعد ان كادت مواصلة الموميا‌ات العربية ، من مهىً وظبياتٍ ومعلقات ، تستنزف سوزًا شاحباً ، في اعراق هذا الشعب ، من نسغ الخلق والابتكار . وان « افاعيه » التي نحاول درسها اليوم ، لمن ثمار تشرّقنا بشموس الغرب ، او هي ، اذا شئت ، من جنى ما هيّأه لنا الغرب — نحن اللبنانيين ابناء المتوسّط — من لقاء ذاتنا وعناق أنيتنا الحقّ .

* * *

اول ما يسترعي الانتباه في « افاعي الفردوس »[1] هدير شهوةٍ صاخبة ملحاحٍ ، يتفجّر ، هنا وهناك ، في معظم المجموعة ، اما عربدةً حمراء ، واما خزياً قذرًا . قال :

شبق الليث ليلةً فتنزّى ، ثائرًا في عرينه المهجورِ ،
تقطر الشهوة المسعّرة الشهوا ءُ منه ، كأنه في هجيرِ ،
يضرب الارض بالبراثن ، غضبا نَ ، فيصدي القنوط في الديجورِ .

وقال :

فابصرت اطباقاً تمدّدها يدٌ اصابع من عظمٍ ، وتصنعها يدُ ؛
صباغ يذرر الخزي منه ، ملاصقاً اذا علقت فيه النواظر تجمدُ .
وشاهدت في الاطباق مفسدة الورى، تمور بها الديدان ، سكرى ، تعربدُ ؛
مقاذر تمشي في الحياة طروبةً تغني ، واصداء القبور ترددُ .

---

١) الياس ابو شبكه : افاعي الفردوس – شعر – ٩٦ ص . كبيرة ، منشورات دار « المكشوف » ، بيروت ، ١٩٣٨ .

هي « حممٌ تتشظى » او هي « تنهدات مستنقع »، وحصاد امثالها ميسورٌ في « الافاعي ». ولكنها — وهذا دليلي على نقص في الذوق الكسبي — مغمورة بابياتٍ اقل ما يُقال فيها انها بقيّات معتّقة من عهد « القيثارة » غير السعيد:

— والبصير البصير يخدع بالحسن ، وينقاد كالضرير الضرير
— ان قاضي المستعبدين لعبدٌ وقضاة عور قضاة العور...

اضف الى هذا موسيقى نظمية ضئيلة ، ونغماً موحداً لا يكاد يختلف طوال الثلاث عشرة قصيدة التي تتألف منها المجموعة ! ونحن ، امام ابياتٍ ، كالتي ذكرنا ، تلفظها القريحة في « ساعات خدرٍ » هي الى الموت اقرب منها الى الحياة ، لا يسعنا الى ان نأسف للحملة الشواء ، يحملها صاحب الافاعي في « حديث الشعر » ، على النظريات الشعرية الحديثة ، باسم الموهبة الحرة والالهام الانفعالي والبديهة الكسول — كما لو كانت ارادة الفرد عديمة التأثير حتاً على هذا الشيطان الكامن في صدر كلٍ منا ، ملكةً طائعة وقوةً صاغرة... وان ما يزيدنا على هذه الحملة اسفاً ، كون التصوير الموسيقي في الابيات الشعرية الموفقة ، قويّ جداً بل رائع ، على توحّده ، احياناً : مما يدل على موهبة خام ، لو رفدها الكسب وصقلها العمل ، اكثر مما رفد وصقل ، لأعطت الجمال متقفاً سوياً لا معوجاً ولا مخلماً.

* * *

ولننتقل الآن من اعتبارات فنية محضة ، الى أُخرى يثيرها بعض الاهتمام بالآداب العامة وتدعو اليها « صراحة » ابي شبكه المتطرفة.

في اعتقادي ان « افاعي الفردوس » ، وان كانت تمت الى « أزاهير الشر » بصلات ، غير انها لا تحدث هذا الاضطراب النفساني العميق الذي يمكن التخوّف منه على المبتدئين والسبب ذلك اثنان :

الاول ما لمحت اليه من ان الابيات « الشعرية » يتخللها او يكتنفها ابيات « نثرية » تبدّد الوجد الفني تبديداً يكاد يكون تاماً . فهي اشبه شيء بتلك

« الكتل الفظيعة من احشاء الاسماك » ، تعترضك في غمرة البحران ، في اليم ، « بلون الورد الخفيف ، او الارجوان العميق » — بيد ان المواجد تتسرب الى عريك الاسمر من مذاب الشمس الفاتر او رحمة الاهاجير الموسوسة . والحال ان النثر لا يؤثر نفسياً ، الا بقدر ما يقترب من الشعر ، الذي امامه حضرة العقل تتقاص ، وبفعله توابع النثر تتفلت في عزيفها المنكر وولولتها المسكرة .

اما السبب الثاني فهو هذا العري الفاجر في التصوير :

— اسدوم هذا العمر لن تتحجبي ! . . .

والفن ، اذا تعرّى من الستر على يد شاعر « خبثت عرائسه » ، تعرّى من سرّ الغواية فالشوق ، وربما في حالةٍ هي الى التقزّز اقرب منها الى المتعة المضطربة . فلو القى شاعرنا على سدومياته وشاحاً من الغموض الحي — « لا يكتم من (الحسن) الا بمقدار ولا يشفّ عنه الا بمقدار » — لكان خطره على الآداب شديداً . ولعله احسن صنعاً يوم فضل الآداب على الادب ، فاختار لنفسه هذه الطريقة « الطبيعية » التي اتبعها واوغل في اتباعها . وفقه الله الى ما وفق اليه هنري هينه حين قال :

« كنت على الشفاء ، بالخلق ، قادراً

ولقد شفيت يوم خلقت . . . »

وبالجملة يمكننا القول ان جوّ « افاعي الفردوس » هو جوّ عربدةٍ فاجرة يزجنا فيه شاعرٌ استوحى « المواخير » وراح ، نظير ملعون « الدينونة » : « يلي باتياب واظفار . . . »

* * *

وصاحب « الافاعي » يشبه ملاعين الشعراء ، كبودلير ، من ناحية اخرى قد تبرز نبوّة « الشهوة الحمراء » :

ـ ينظر الندُ في اسي ويشره . . .

فان اشعةً دامية طاهرة تخترق هذا الجوّ المثقل بقتار الشهوات ونحيح البغايا : هي الذكريات الاولى البريئة ، هي خيالات الحب الاول العذري :

بقيَ لي الاسى من غلواي جنّتها ولم يزل في دمي من نـلها نـسبُ !

هذا فجرٌ صغير في ليل من الدعر رحيب . والخلاص (الخلاص الذي ينزع اليه المبعد المسكين من حيث قد يشعر ومن حيث لا يدري) طريقه الشائك ، طريقه السحيق ، حنينٌ ينبع في دمعةٍ كهذه :

وداعاً ، عذارى الحب في خيم الهوى ، جمالك محظورٌ وعدنك موصدُ !

ـــ عدنك موصد ! نعم ، ولكن الى حدّ . لان « اعياداً مقدسة » تنام في المدن الداخلي ، وأدتها الخمرُ الشهى قديماً ، ولم تمت ، فاذا ارهما النور تهيباً ، افاقت اجراسها وشاعت تباشيرها واقلقت الشاعر في ماخوره ، فصرخ :

ولخاطرِ الهوى لعلّ عبيرًا من غاد الشفاه والاكبادِ ،
او لعلّ الآثام تشرب منا ما تبقى من طهر ماء العهادِ !

هي صرخة المنقسم على نفسه الجريح ، يريد الافلات من مأساته فيحتال في « محق » احد عنصريها : ذاك الذي يشدّ به الى فوق . بيد انه لا يلبث ان يتحقق عجزه فيحاول « اقصاء » هذا العنصر فيقول :

ما لنا وللأبد ان سره عميق ...

ولكن في غير طائل لحسن الحظ . فيجرب سلاحه في العنصر السفلي اذاك ، محاولاً « انكاره » في زهوة محزنة :

قيثارتي لم الطخها باقذار ، على طوافي بها في بؤرة العار .

ولقد يجترح المسخ احياناً ليتخلص من مأساته فيقول ـــ والعهدة على الراوي ـــ انه يجني « الشهد » من « الجيف الجرداء » ابريزاً . والله اعلم !

اما هذه المأساة نفسها فاقرب ما في « افاعي الفردوس » الى قلوبنا . و« الخيالات النقية » كوىً منورة ننفذ منها ، مع الشاعر ، الى فوق : الى حيث ينتظرنا اله المجدلية فيحدب على ضعفنا وينهضنا من الوحول ويرحضنا « بتجاجات » شمسه » الى الدم ...